سُورَةُ المُؤمِنُونَ

التّعريف العامّ بالسّورة:

الأصحُّ أنّ سورة (المؤمنون) كلّها مَكّيّة.

سـورة المؤمنون من السّـور المكّيّة عند جمهور العلماء[1]، ويظهر انسجامُ مَكّيِّها كلَّ الانسجام مع السّياق الذي جاءت فيه نظمًا وموضوعًا[2].

وسورة (المؤمنون) هي السّورة الثّالثة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق - وهو المُسمَّى بترتيب التّلاوة - جاءت بين سورتيّ الحجّ والنّور، وعدد آياتها مائة وثماني عشرَة آيَةً في الكوفيّ، وتسع عشر آيَة في عدد الباقينَ[3].

وأمّا ترتيبها النّزوليّ فقد ذُكِر أنّ ترتيبها هو الثّالثة والسّبعون بين سورتي الأنبياء والسّجدة[4]، وزعم بعضهم أنّها السّورَةُ السّادِسَةُ والسَّبْعونَ في عِدادِ نُزولِ سوَرِ القُرْآنِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الطّورِ وقبْل سورَةِ المُلك[5]، والحقّ أنّ التّرتيب النّزوليّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقاده إلى صحّة الرّوايات الواردة فيه، وممّا يؤكّد ذلك اختلافهم في سرد هذا التّرتيب، ولكن مع هذا كلّه فهُمْ على الأقلّ مُتّفقون على أنّها من أواخر السّور نزولًا قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 102، وأوردت بعض المصادر أقوالًا بمدنيَّة بعض آياتها، ينظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 2/ 18، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 70/ 12.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 6.

(3) الدّاني، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 191.

(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 6.

فضائلها:

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّه قال: "كان النّبيّ ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي سُمِعَ عند وجهه دويٌّ كدويّ النّحل؛ فأُنزِل عليه يومًا فمكثنا ساعةً، فسُرّي عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال: اللهمّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وأرْضِنا وارضَ عنا، ثمّ قال: أُنزل عليّ عشر آيات مَن أقامهنَّ دخل الجنّة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات"(1).

وأخرج النسائي عن يَزيد بْن بابَنوسَ، قالَ: قُلْنا لِعائِشَةَ: يا أُمَّ المُؤْمِنينَ، كَيْفَ كانَ خُلُقُ رَسولِ اللهِ ﷺ؟ قالَتْ: "كانَ خُلُقُ رَسولِ اللهِ القُرْآنُ"، فقَرَأتْ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1] حَتَّى انْتَهَتْ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: 9]، قالَتْ: "هَكَذا كانَ خُلُقُ رَسولِ اللهِ ﷺ"(2).

التّوقيتُ الزّمنيُّ لنزول السّورة:

ظروف نزول السّورة حافلة بالأحداث والتّحديّات للمسلمين في مكّة.

ذكر أهل التفسير أنّ الظّروف التي نزلت فيها هذه السّورة كانت حافلة بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون الأوائل في مكّة المكرّمة، حيث نزلت في أواخر العهد المكي، بعد تكبُّدهم المعاناة والاضطهاد، وتقلّبت عليهم فيها أحوالٌ من التّكذيب والتّشكيك، وكان النبي ﷺ قد فقد عمَّه أبا طالب وزوجَهُ السّيدة خديجة ﷺ، وسُمّي ذلك العام بعام الحزن بسبب تعطّل أسباب دعوة أهل مكة، وما لَقِيَه من أذًى في داخل مكّة وفي خارجها من أهل الطّائف؛ فوجد النَّبيّ ﷺ في نفسه ما وجد من كَبَدٍ وعناء، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تُثبّت به فؤاده وترفع من معنويّاته؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ

(1) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب: ومن سورة المؤمنون، حديث رقم: (3173).
(2) النسائي، السنن الكبرى، كتاب التفسير، الحديث رقم: (11287).

فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون: 44] وقوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون: 93 - 95]، وخلال ذلك كلّه عرضتْ بعضَ جوانب رحلة الأنبياء مع أقوامهم، وبيّنت ما حلّ بأقوامهم من عذاب، وخُتمت السّورة بالتّسرية عن النّبيّ ﷺ، والوصيّة له بالثّبات على دعوته: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118].

❁ أسماء السّورة الكريمة:

سورةُ (المؤمنون) لـمْ تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

ورد في السُّنّة تسميتُها بهذا الاسم؛ فعن عبد الله بن السّائب قال: "صلَّى بنا رسول الله ص ﷺ الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذِكْر موسى وهارون - أو ذِكْرُ موسى وعيسى؛ ابن عبّاد يَشُكُّ، أو اختلفوا - أخذتِ النّبيَّ ﷺ سَعْلَةٌ؛ فحذف فركع، وعبد الله بن السّائب حاضرٌ"(1).

يقول القاسميّ: "سُمّيت بالمؤمنين لاشتمالها على جلائل أوصافهم ونتائجها في أوّلها وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: 57]"(2).

والحقّ أنّ تسميتها بسورة المؤمنين ليس مُرتبطًا فقط باستهلال السّورة الكريمة التصريح بذكر أوصافهم؛ بل لأنّ مدار السّورة الكريمة قائمٌ على بيان حقيقة هذا الإيمان وأركانه وثمراته في النّفوس، وساقت أدلّة هذا الإيمان في الأنفس والآفاق، ووضحت مهمّة الأنبياء السّابقين في تقرير الإيمان في نفوس أقوامهم، ولأنّ السّورة الكريمة بيّنت كذلك شبهات المُكذّبين ودعاويهم، والأسباب

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (455)، وأبو داود، سنن أبي داود، برقم: (649)، وقوله: "فحذف فركع" بمعنى: تَوقَّفَ عن القِراءةِ وأنهاها على ما وصَلَ إليه، وركَعَ، ولم يُواصِلْ قراءةَ بَقيَّةِ السُّورة.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 280.

الحقيقيّة التي صدّتهم عن دعوة الحقّ، وبيّنت كذلك مصائرهم في الدّنيا والآخرة وما لحقهم من العذاب، فارتباط اسم السّورة بمحورها هو ارتباطٌ تامٌّ، ولذا فقد جاءت تسميتها بهذا الاسم؛ لأنّه يُمثِّل شعارها العام الذي قامت عليه.

ومن الأسماء المتداولة للسّورة: سورة (قد أفلح)، وسورة (الفلاح) من باب إطلاق الجزء ليُراد به الكلّ[1]، وعنوَن باسم سورَةِ (قَدْ أَفْلَحَ) الطَّبريُّ في تفسيره[2]، وسمّاها بهذا الاسم السَّخاويُّ كذلك[3].

❁ الموضوعاتُ الرئيسةُ للسّورة:

مَـدارُ الـسّـورةِ حـولَ الألـوهيّة والـنّـبـوّة والغيبيّات.

يرى ابن عاشور أنّ هَذِهِ السّورَةُ تَدورُ آيُها حَوْلَ مِحْوَرِ تَحْقيقِ الوَحْدانيَّةِ وإبْطالِ الشِّرْكِ ونَقْضِ قَواعِدِهِ، والتَّنْويهِ بالإيمانِ وشَرائِعِهِ.

فَكانَ افْتِتاحُها بالبِشارَةِ لِلْمُؤْمِنينَ بالفَلاحِ العَظيمِ عَلَى ما تَحَلَّوْا بِهِ مِنْ أُصولِ الفَضائِلِ الرّوحيةِ والعلميّة الَّتي بِها تَزْكيَةُ النَّفْسِ واسْتِقامَةُ السُّلوكِ.

وَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِوَصْفِ خَلْقِ الإنْسانِ أصْلِهِ ونَسْلِهِ الدّالِّ عَلَى تَفَرُّدِ اللّهِ تَعالَى بِالإلَهيَّةِ لِتَفَرُّدِهِ بِخَلْقِ الإنْسانِ ونَشْأتِهِ؛ ليَبْتَدِئَ النّاظِرُ بِالاعْتِبارِ في تَكْوينِ ذاتِهِ، ثُمَّ بِعَدَمِهِ بَعْدَ الحَياةِ، ودَلالَةِ ذَلِكَ الخَلْقِ عَلَى إثْباتِ البَعْثِ بَعْدَ المَماتِ، وأنَّ اللّهَ لَمْ يَخْلُقِ الخَلْقَ سُدًى ولَعِبًا.

وانْتَقَلَ إلَى الاعْتِبارِ بِخَلْقِ السَّماواتِ ودَلالَتِهِ عَلَى حِكْمَةِ اللّهِ تَعالَى، وإلَى الاعْتِبارِ والامْتِنانِ بِمَصْنوعاتِ اللّهِ تَعالَى الَّتي أَصْلُها الماءُ الَّذي بِهِ حَياةُ ما في هَذا العالَمِ مِنَ الحَيَوانِ والنَّباتِ، وما في ذَلِكَ مِنْ دَقائِقِ الصُّنْعِ، وما في الأنْعامِ مِنَ المَنافِعِ؛ ومِنْها الحَمْلُ، ومِنْ تَسْخيرِ المَنافِعِ لِلنّاسِ، وما أوتيَهُ الإنْسانُ مِنْ آلاتِ الفِكْرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 194.
(3) السّخاويّ، جمال القرّاء: 1/ 37.

والنَّظَرِ، ووَرَدَ ذِكْرُ الحَمْلِ عَلَى الفُلْكِ فكانَ مِنْهُ تَخَلُّصٌ إلَى بِعْثَةِ نوحٍ وحَدَثِ الطّوفانِ.

وانْتَقَلَ إلَى التَّذْكيرِ بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ لِلْهُدَى والإرْشادِ إلَى التَّوْحيدِ والعَمَلِ الصّالِحِ، وما تَلَقّاها بِهِ أقْوامُهُمْ مِنَ الإعْراضِ والطَّعْنِ والتَّفَرُّقِ، وما كانَ مِنْ عِقابِ المُكَذِّبينَ، وتِلْكَ أمْثالٌ لِمَوْعِظَةِ المُعْرِضينَ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فأعْقَبَ ذَلِكَ بِالثَّناءِ عَلَى الَّذينَ آمَنوا واتَّقَوْا، وبِتَنْبيهِ المُشْرِكينَ عَلَى أنَّ حالَهُمْ مُماثِلٌ لِأحْوالِ الأُمَمِ الغابِرَةِ وكَلِمَتُهُمْ واحِدَةٌ؛ فهُمْ عُرْضَةٌ لِأنْ يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بِالأُمَمِ الماضِيَةِ المُكَذِّبَةِ.

وَقَدْ أراهُمُ اللّهُ مَخائِلَ العَذابِ لَعَلَّهُمْ يُقْلِعونَ عَنِ العِنادِ؛ فأصَرّوا عَلَى إشْراكِهِمْ بِما ألْقَى الشَّيْطانُ في عُقولِهِمْ، وذُكِّروا بِأنَّهُمْ يُقِرّونَ إذا سُئِلوا بِأنَّ اللّهَ مُفْرَدٌ بِالرُّبوبِيَّةِ ولا يُجْرونَ عَلَى مُقْتَضَى إقْرارِهِمْ، وأنَّهُمْ سَيَنْدَمونَ على الكفْرِ عِنْدما يَحْضُرُهُمُ المَوْتُ وفي يَوْمِ القيامَةِ، وبِأنَّهُمْ عَرَفوا الرَّسولَ وخَبَروا صِدْقَهُ وأمانَتَهُ ونُصْحَهُ المُجَرَّدَ عَنْ طَلَبِ المَنْفَعَةِ لِنَفْسِهِ إلّا ثَوابَ اللّهِ؛ وما تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ.

وَخُتِمَتْ بِأمْرِ النَّبِيِّ ﷺ أنْ يَغُضَّ عَنْ سوءِ مُعامَلَتِهِمْ ويَدْفَعَها بِالَّتي هيَ أحْسَنُ، ويَسْألَ المَغْفِرَةَ لِلْمُؤْمِنينَ؛ وذَلِكَ هوَ الفَلاحُ الَّذي ابْتُدِئَتْ بِهِ السّورَةُ[1].

❁ بيانُ محورها العامِّ والموضوعات التي تأتلفُ وتلتفُّ حوله:

دعـوةُ الأنبياء للإيمان واحدة، ومِـلّـةُ الـكـفر واحدةٌ.

المحور الذي قامت عليه هذه السّورة يتعلّق بتقرير حقيقة الإيمان وماهيّته، ووظيفة الرّسل في إبلاغه للنّاس، وذلك من خلال عرض بعد الأدلّة الأنفسيّة والآفاقيّة الدّالّة عليه، ثمّ بيان أهمّ شبهات المُكذّبين حول حقائق الأُلوهيّة، وبشريّة الرّسل وإمكانيّة البعث،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 17 - 18.

والرّدّ عليها، واقتضى الأمر أن تُبيّن السّورة أسبابَ اختلافهم حول هذه الحقائق، وعرض جزاء الفريقيْن من المؤمنين والكافرين.

ومن المقاصد العامَّة للسّورة:

أولًا: بشارة المؤمنين بالفلاح العظيم؛ لِما تحلَّوا به من أصول الفضائل الرّوحية والعَمَلية التي تحصل بها تزكية النَّفس واستقامةُ السُّلوك، واستحقاقُ ميراث الفردوس الأعلى في جنّات الخلد.

ثانيًا: بيانُ أدلة الوحدانيّة في خلق الإنسان والنّبات والحيوان، وتذكيرُ الإنسان بأطواره التي مرَّ بها في خلقه، ودلالة ذلك على إثبات البعث بعد الممات، وأنَّ الله لم يخلق الخلق سُدًى.

ثالثًا: التّنصيص على وحدة الرِّسالات، والتّذكيرُ ببعثة الرُّسل للإرشاد إلى التّوحيد والعمل الصّالح، وما تلقاهم به أقوامهم من الإعراض، وما كان من عقاب المُكذّبين؛ تذكرةً وموعظةً للمُعرضين عن دعوة النبّيّ ﷺ، وتسليةً له عمّا ناله من أذى المشركين وتكذيبِهم واستهزائِهم.

رابعًا: تعليمُ النّبيّ ﷺ بعضَ الآداب الشرعيَّة في الدُّعاء وفي الرَّدِّ على الأعداء، والالتجاءِ إلى الله ﷻ.

خامسًا: ذِكْر ما يكون بعد الموت من مشاهد القيامة من الحشر والنَّشر، وانقسام النّاس إلى فريقيْن؛ فلا حسبٌ ولا نسبٌ ينفع في ذلك اليوم؛ إنَّما هو العمل الصّالح، وذِكْر حال أهل الشّقاء وما ينتهون إليه، وحال أهل السّعادة عند إعلان فوزهم في الدّار الآخرة.

سادسًا: بيّنت السّورةُ الكريمة صفاتِ المؤمنين، وقرَّرت حقيقةَ الإيمان وأثره في النّفوس على كافّة المستويات القوليّة والفعليّة والاعتقاديّة، سواءً أكان ذلك في المجال التّعبّديّ أم التّعامليّ أم الأخلاقيّ فيما بينهم وبين خالقهم، أو بينهم وبين غيرهم، وذلك بدءًا من الآيات الأولى في السّورة في قوله تعالى في وصف المؤمنين.

سابعًا: أوجزت السّورة في أثنائها حقيقة الإيمان في نفوس أتباعه من خلال بيان بعض أركانه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 57 - 61].

ثامنًا: بيّنت السّورة الكريمة كذلك موجز دعوة الأنبياء لأقوامهم لحقيقة الإيمان وأثره في نفوسهم، جاء ذلك على لسان نوح ﷺ في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: 23]، وكانت هي ذات الدّعوة لكلّ مَن جاء بعده من الرّسل، وكانت وصيّة الله واحدة لكلّ أولئك الرّسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 51].

وبيّنت السّورة الكريمة تكذيب هؤلاء الأقوام لدعوة الرّسل، وبيّنت بعض ما حلّ بالمكذّبين، وبيّنت على وجه التّفصيل مصائر بعض المكذّبين، فعن قوم نوح مثلًا قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 27]، وعن مصائر القرون بعده قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون: 41 - 42]، وعن المُكذّبين لدعوة موسى وهارون قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: 48].

تاسعًا: عرضت السّورة الكريمة للأدلّة المُتنوّعة على حقيقة هذا الإيمان في الأنفس والآفاق؛ فبدأت بالأدلّة الأنفسيّة؛ لأنّها الأقرب للمُخاطَبين(1).

عاشرًا: عرضت السورة الشّبهات التي أثارها المكذّبون حول هذه الحقائق الإيمانيّة، وناقشتها نقاشًا هادئًا رزينًا كما فعلت في شبهتهم حول حقيقة الوحدانيّة، إذ قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: 91]، وعرض شبهاتهم حول النّبوّة في مثل ما قالوه حول نوح ﷺ والأنبياء من بعده من أنّهم مُجرَّد بشر(2).

وأمّا في حقيقة البعث والمعاد وإنكارهم له واستبعادهم حصوله؛ فقد كان شعارهم الذي يتداولونه بينهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

(1) كما في الآيات: (12 - 22، و78 - 80).

(2) في الآيات: (24، 25، 33، 34، 47).

*هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، وكانت السّورة تردُّ عليهم شُبَهَهم هذه في كلّ مرّةٍ بأسلوبٍ هادئٍ رزينٍ[1].

الحادي عشر: بيّنت السّورةُ الكريمة بعضَ الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التّكذيب؛ ومن أهمّها تقطّعُهم وتشرذُمهم إلى فرقٍ وأحزابٍ، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ [المؤمنون: 53] مع أنّ اللّه تعالى كان قد أمرهم بأن يكونوا على ملّةٍ وشريعةٍ واحدةٍ بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ [المؤمنون: 52]، وبيّنت السّورة كذلك أثر التّرف في تكذيبهم في موضعيْن منها[2].

وقد تتابع ذِكْر هذه الأسباب المانعة لهم من الإيمان باللّه تعالى من الاستكبار، وترك التّدبّر، وكراهيتهم للحقّ، واتّباعهم للأهواء[3].

الثاني عشر: خُتمت السّورةُ الكريمة ببيان الجزاء الأخرويّ للمُؤمنين والمُكذّبين بهذه الحقائق التي عرضتها في شأن الإيمان بالإلهيّات والنّبوّات والغيبيّات[4]، ثمّ عرضت السّورةُ الكريمة صورةً حيّةً من الجزاء الأخرويّ للمُكذّبين وللمؤمنين تُبيِّن فيه ندم المُكذّبين في ذلك الموقف المهيب[5].

❁ الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة لسورة (المؤمنون):

أوّلًا: تميّزت سورة المؤمنون أوّل ما تميّزت ببراعة الاستهلال، إذ لا يوجد سورةٌ أخرى شاركتها في هذا الابتداء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ثانيًا: تميّزت السورة الكريمة بصفات المؤمنين التي ذكرتها؛ فلا يوجد سورة أخرى شاركتها في هذه الأوصاف، خلا سورة المعارج التي شاركتها في بعض الصّفات، وزادت كلٌّ منهما عن الأخرى بصفاتٍ محدّدة بما يتلاءم مع مقصود كلِّ سورة، ومحورها الذي قامت عليه[6].

(1) في الآيات: (84 - 89).
(2) في الآيات: (33، 64).
(3) في الآيات: (67 - 71).
(4) في الآيات: (101 - 103).
(5) في الآيات: (106 - 111).
(6) سورة المعارج: (19 - 35).

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بذِكْر سبع مراحل متتابعة من خلق الإنسان لم تشاركها فيها سورةٌ أخرى، خلا سورة الحجّ التي سبقتها، والتي ذكرت سبعَ مراحل لخلق الإنسان مثلها، مع احتفاظ كلّ سورةٍ منهما بخصوصيّة الأسلوب في العرض، فقد استعملت سورة المؤمنين أسلوب العطف بـ (ثمّ) في أوّل مراحل الخَلْق مثل سورة الحجّ، ثمّ عطفت بين بقيّة المراحل بحرف الفاء الذي أفاد التّرتيب والتّعقيب السّريع بخلاف سورة الحجّ التي فصَلتْ بين هذه المراحل بحرف (ثمّ)، وكذلك في اختصاص كلّ منهما بتفصيلات ومراحل لاءمت السّياق الذي جاءت فيه[1].

رابعًا: تفرّدت السّورة بما ذكرته عن السّماوات ووصفها بالطّرائق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: 17 - 18]، وكذلك فيما ذكرته عن شجرة الزّيتون وإن لم تُسمِّها باسمها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: 20].

خامسًا: امتازت السّورة بذِكْر التّرف مرّتيْن على أنّه سببٌ في إهلاك الأمم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: 33]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون: 64]، وذلك من أصل ثمانية مواضع وردت في القرآن كلّه[2].

سادسًا: اختُصَّت السّورةُ بدعاء خاصٍّ ذُكر فيها في موضعين؛ الأوّل: بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: 109]، والثّاني: بصيغة الإفراد في قوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118].

سابعًا: انفردت السّورة بذِكْر هذا الرَّدّ الشَّديد الخطاب الذي لم نعهده في أسلوب القرآن، وذلك في أثناء الرّدّ على طلب أهل جهنّم حين قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا

(1) سورة الحجّ: 5، وسورة المؤمنون: 12 - 14.

(2) هود، الآية: (116)، الإسراء، الآية: (16)، الأنبياء، الآية: (13)، سبأ، الآية: (34)، الزّخرف، الآية: (23)، الواقعة، الآية: (45).

فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]؛ فردّ الحقّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ [المؤمنون: 108].

ثامنًا: تعانق مطلع السّورة مع آخرها؛ إذ بدأت بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وخُتمت بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ [المؤمنون: 117 - 118]، فقد أفلح المؤمنون في أوّل السّورة الكريمة، ولم يُفلح الكافرون في آخرها؛ وهذا تقابلٌ ظاهرٌ.

تاسعًا: انفردت السّورة بكثرة أساليب التّوكيد فيها، وكذلك بكثرة أسلوب الاستفهام التّقريريّ والإنكاريّ، ممّا يُدلّل على عناية السّورة بتحقيق القضايا العَقَديّة الكبرى التي جاءت بها.

عاشرًا: جاءت معظم فواصل السّورة منتهيةً بحرف النّون؛ وعددها (مائة وأربع عشرة) فاصلة؛ أمّا الأربع الباقية فجاءتْ منتهيةً بحرف الميم، وهما حرفان يشتركان في كثير من الصِّفات، وأهم صفاتهما أنّهما أكثر الأصوات السّاكنة وضوحًا، حيث غلب على السّورة جوّ الخطاب الهادئ والحجج العقليّة التي يلزمها أعلى درجات الوضوح في الوصف، وعلى شدّة ثقة المُتكلِّم بما جاء به، وجاءت الآيات الأربع التي ختمت بالميم متميزة حيث دلّت ثلاثٌ منها على صفات الله تعالى: ﴿عَلِيمُ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 51]، ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: 86]، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116]، والرّابعة وصفًا لدين الله الـ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: 73].

الحادي عشر: كثر في السّورة فعل الأمر (قُلْ) إذْ ورد نحو إحدى عشرة مرّةً من أصل ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرّةً في القرآن الكريم، ولا شكّ أنّ أمر النّبيّ ﷺ بهذا الفعل (قُلْ) يأتي في سياق أمورٍ مهمّة جليلةٍ تستدعي أن يتولّاها بنفسه.

الثّاني عشر: انفردت السّورةُ ببعض الألفاظ التي لم تَرِد في غيرها - على الصيغة نفسها - من السّور في المادّة اللّغويّة مثل: ﴿سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]، ﴿كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: 104]، ﴿تَلْفَحُ﴾ [المؤمنون: 104]، ﴿*هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: 36]، ولا شكّ أنَّ انفراد السّور القرآنيّة ببعض الأساليب والألفاظ والصّيغ والتّعابير الخاصّة بها له ارتباطٌ كبير بموضوعاتها وأغراضها

التي سيقت لأجلها والتي قامت عليها محاور السّور، والتي من شأنها أن تُميِّزها عن غيرها من السّور التي شاركتها ذات القضايا والموضوعات التي عالجها القرآن الكريم.

❁ بيانُ المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها:

السّورة متّصلة تمامًا بسورتي الحجّ والنّور مضمونًا وأسلوبًا.

جاءت هذه السّورة في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة الحجّ، وقد تلمّس وجه اتّصالهما الإمامُ البقاعيّ بقوله: "لمّا خُتمت الحجّ بنداء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحج: 77] وأمرهم بأمور الدّين خاصّةً وعامّةً، وختم بالصّلاة والزّكاة والعصمة به سبحانه مَوْصوفًا بِما ذَكَرَ؛ أوجب ذلك توقّع المُنادين كلّ خير، فابتدأت هذه بما يُثمر الاعتصام به سبحانه في الصّلاة وغيرها من خلال الدّين في الدّارين"[1].

وأضاف المراغيّ وجوهًا أخرى للمناسبة بينها وبين ما قبلها من وجوه:

أوّلًا: أنَّه تعالى ختم السّورة السّابقة بخطاب المؤمنين، وأمرهم بإقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات؛ لعلهم يفلحون، فقد حقّق فلاحهم في بدء هذه السّورة؛ ففي مطلع (المؤمنون) إفصاحٌ بما هو غايةُ ما في آخر (الحَجّ)؛ فهذا وجه تناسُبٍ وتجاوُرٍ وترتيبٍ.

ثانيًا: أنّه تكلّم في كلّ من السّورتيْن في النّشأة الأولى، وجعل ذلك دليلًا على البعث والنّشور.

ثالثًا: أنَّ في كلّ من السّورتيْن قصصًا للأنبياء الماضين وأُممهم ذُكرت عبرةً للحاضرين والآتين.

رابعًا: أنَّه نصب في كلّ منهما أدلّةً على وجود الخالق ووحدانيّته[2]، وكلٌّ من الوجه الثّاني والثّالثِ والرّابعِ: وجهُ تناسُبٍ وتجاوُرٍ عامٌّ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 3.

أمّا عن اتّصالها بسورة النّور التي تلتها في ترتيب المصحف الشّريف، فرغم مدنيّة سورة النّور إلّا أنّ العلائق بين السّورتيْن قويّة جدًا، أوجزها السُّيوطيُّ بقوله: "وجه اتّصالها بسورة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾: أنّه لمّا قال فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾؛ ذَكَر في النّور أحكام مَن لم يحفظ فرْجَه من الزّانية والزّاني وما اتّصل بذلك من شأن القذف، وقصّة الإفك، والأمر بغضِّ البصر، وأمر فيها بالنِّكاح حفظًا للفُروج، وأمر مَن لم يقدِرْ على النِّكاح بالاستعفاف وحفظ فرْجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزِّنى، ثمّ عقّب قائلًا: ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط؛ ولا تناسق أبدع من هذا النَّسَق"[1].

والحقّ أنّه قال فأوجز؛ فجُلُّ الأحكام التي ذكرتْها سورة النّور مرتبطةٌ بتحقُّق الإيمان وتمكّنه في النّفوس، ولا سيّما أنّها ذكرت أحكامًا تتعلّق بعفّة المجتمع المسلم وفضيلته التي من شأنها أن تحفظ وجوده، فمن بداية السّورة ظهر هذا الأمر، وفي التّعقيب على حادثة الإفك ذِكْرُ بعض الإجراءات التي يجبُ اتّخاذها للحيلولة دون تناقل الإشاعات الكاذبة، وربط ذلك بالإيمان، وفي معرض ذِكْره للوسائل الوقائيّة من جريمة الزّنى قال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [النّور: 21]، وذكر أحكام الاستئذان، وأمر بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج، ونهى عن إظهار الزّينة الدّاخليّة سدًّا لذريعة الزّنى، ثمّ ذيّل آيتيْ غضّ البصر وحفظ الفروج وأحكام الزّينة، وذكر في السّورة من أوصاف المؤمنين.

والحاصلُ: أنَّ غير قليلٍ مِن آي سورة النّور تفصيلٌ لبعض معاني سورة (المؤمنون)؛ فالعَلاقة بينهما علاقة تفصيل بإجمالٍ، وبيان بإبهامٍ؛ وهذه علاقةٌ مُطَّردةٌ بين سور الذِّكر الحكيم؛ أليست كلّ سور القرآن – ما عدا الفاتحةَ – تفصيلًا لسورة الفاتحة التي هي أُمُّ القرآنِ؟ وهذه العلاقة وجهُ تناسُبٍ وتجاوُرٍ وترتيبٍ.

(1) السّيوطيّ، تناسق الدُّرر، ص: 112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»